

الأسس المعرفية لكتابات عبد الرحمن الحاج صالح

Knowledge bases of the writings of Abdul Rahman Al - Haj Saleh

أ. أسماء عبداوي، جامعة باتنة 1، الجزائر.

asmaabdaoui@gmail.com

تاريخ التسليم: (2019/07/26)، تاريخ التقييم: (2019/08/27)، تاريخ القبول: (2019/09/20)

Abstract :

ملخص :

The study sought to highlight one of serious linguistic achievements, which belong to the Algerian linguistic world Abderrahmane Hajj Saleh, With the aim of highlighting the epistemological foundations upon which Haji Saleh built the alternative linguistic theory (Al Khalil Linguistics). Which led him to accurately identify the language described, And to check the description machine by linking it with the epistemological and philosophical document in which it originated.

key words: Al Khalil School, descriptor Device, Described language , Epistemology.
Jazeera

سعت الدراسة لإبراز أحد الانجازات اللسانية الجادة، والتي تعود للعالم اللساني الجزائري عبد الرحمن الحاج صالح سعيا نحو إبراز الأسس الإبستيمولوجية التي استند عليها في اقتراح المنجز اللساني الخليلي نظرية بديلة، والتي توصل من خلالها إلى تحديد دقيق للغة الموصوفة، وإلى ضبط محكم للألة الواصفة من خلال ربطها بالسند الإبستيمولوجي والفلسفي الذي نشأت فيه.

الكلمات المفتاحية: الإبستيمولوجيا، اللغة الموصوفة، الألة الواصفة، المدرسة الخليلية.

مقدمة:

كما تتساءل اللسانيات عن أحوال اللغة، تتساءل الإبستمولوجيا عن أحوال هذا الخطاب الميتالغوي للكشف عن أصوله ومبادئه المنهجية.

وإذا بحثنا عن نصيب الخطاب النقدي العربي من هذا العلم الجديد، أطلعنا تاريخ العلوم على بداية محتشمة لهذا النوع من الدراسات النقدية المؤسسة عند العرب، حيث بدأت الكتابات اللسانية النقدية من مجموعة أحكام غير موضوعية أساسها إما الحماس والانتصار لاتجاه لساني ما أو الهجوم غير المبرر، وسرعان ما اتخذ الخطاب النقدي شكلا واضحا المعالم ومتناسك البنية مؤخرا وبشكل محدود. وتعد كتابات عبد الرحمن الحاج صالح إحدى الخطابات التقويمية المؤسسة إبستمولوجيا نظرا لقيامها على أهم مبادئ هذا العلم، وإذا كانت الخطابات النقدية عند اللسانيين العرب المعاصرين قد عرفت تطورا طبيئا، ووقعت في بعض المزالق أثناء الممارسة الإبستمولوجية، فإن الأسئلة المطروحة هنا هي:

ما مكانة كتابات عبد الرحمن الحاج صالح من النقد الإبستمولوجي؟

وهل استطاع الباحث أن يستوعب هذا المجال بمختلف حيثياته؟ وأن يخلق مشروعاً إبستمولوجياً يعي حقا حقيقة الإنجاز اللساني العربي الحديث؟

وهل حقق الغاية من الممارسة الإبستمولوجية بخلق مشروع لساني جديد يتجاوز عيوب اللسانيات العربية الحديثة؟

- فرضيات الدراسة:

- تسعى اللسانيات العربية المعاصرة لتطبيق بعض المقاربات الغربية على اللغة العربية، لذلك لا يمكن أن تراعي خصوصية اللغة العربية.

- تقترب اللسانيات الخليلية من المعطيات اللغوية، كما يمكن أن تبني نسقا منطقيا عقليا تجريديا ينتقل بقواعد اللغة العربية من التخصيص إلى التعميم من جهة ثانية.

أهداف البحث:

- تسليط الضوء على الدرس اللساني العربي المؤسس إبستمولوجيا.

- إبراز مزالق اللسانيات العربية المعاصرة.

- بناء نظرية لسانية تخلص الدرس اللساني العربي من مزالق الكلية، وتحفظ بقدر عال من النسق المنطقي في سبيل إثبات علميتها من خلال تعميم النتائج.

منهجية البحث:

قام البحث على المنهج الوصفي التحليلي لما له من دور كبير في الدراسة والنقد.

- الوصف: لأنه يسمح برصد الموضوع كما هو ومن ثم الوصول إلى نتائج قريبة إلى حد كبير من الموضوعية.
- التحليل: لأنه يسمح بمناقشة مختلف الآراء وتقويمها، وإعطاء رأينا الخاص في الموضوع واقتراح حلول للمشكلة.

1 - مدخل إلى إبستيمولوجيا اللسانيات العربية:

حظي التراث اللغوي العربي بمكانة متميزة في الثقافة العربية بشكل خاص، وفي رحاب النشاط اللساني الإنساني بشكل عام، وذلك لما حظيت به اللغة العربية من دراسة جادة في ظل التحول الحضاري العميق الذي أحدثه القرآن الكريم. وفي العصر الحديث رأت فئة من الباحثين المحدثين أنه من الضروري إعادة النظر في ذلك المنتج، المنتشر في ثنايا الكتب هنا وهناك دون عناية كافية تستدعي تنظيمه في صورة نظرية متكاملة يشد بعضها بعضاً وبأخذ بعضها بحجر بعض.

لهذا تولت الأبحاث والمحاولات الإصلاحية في العصر الحديث بحثاً عن هذه النظرية وسعيًا نحو تشييدها، ولم يجد بعض اللسانيين العرب المحدثين سبيلاً لذلك سوى هذا العلم الذي لاح في أفق البحث الغربي، حيث فرض هذا العلم الجديد وجوده في ساحة البحث اللغوي العربي، وتولت على إثره عدة محاولات عربية سعت إلى تجديد الرؤية في الدراسة اللغوية، من خلال تطويع بعض النظريات اللسانية الحديثة، وجعلها صالحة لوصف اللغة العربية.

تتوعدت كتابات اللسانيين العرب المحدثين باختلاف منطلقاتهم بين من ينتصر لتوجه لساني واحد، وبين من يتخذ من كتابات أحد اللسانيين المنتمين لمدرسة من المدارس اللسانية الغربية منطلقاً لمحاورة التراث وإعادة النظر في معطيات اللغة العربية من زاوية هذا التوجه الفرعي أو ذاك، ومن الناقدين من انطلق من محددات نقدية واضحة المعالم، تضمن له تماسكاً منهجياً أثناء التقويم، وبهذا يمكن التمييز بين ثلاثة اتجاهات كبرى في الكتابات اللسانية العربية، لكل منها خصائص تميزها عن غيرها وهي:

(علوي، حافظ، 2009، ص187)

1.1 الكتابة النقدية العامة: وهذا النوع من النقد يفتقر إلى أهداف واضحة للكتابة النقدية، فهو

يستهدف اللسانيات العربية في العموم دون تمييز بين نماذجها واتجاهاتها، ودون بحث في حقيقة الخلفيات الإبستيمولوجية المؤسسة للسانيات العربية.

2.1 الكتابة النقدية الخاصة: وهي الكتابة التي يستهدف فيها أصحابها أحد اللسانيين دون

غيرهم، أو مدرسة من المدارس اللسانية أو فرع من فروع اللسانيات إما بالهجوم أو الانتصار غير المبرر.

3.1 الكتابة النقدية المؤسسة: النقد في هذا النوع من الكتابة مؤسس ومبرر بمحددات نظرية ومنهجية تضمن التماسك والوضوح للناقد، وهذه الكتابات اتسم بها عدد من الباحثين أمثال: عبد القادر الفاسي الفهري: من خلال كتابه (اللسانيات واللغة العربية)، برر لضعف الخطاب اللساني بعدة أسباب منها: اللغة الموصوفة وأزمة المنهج، والتصور الخاطئ للغة العربية، وإدعاء العلمية والمنهجية، والتصور الخاطئ للتراث (الفهري، 1985، صص 51، 56، 57، 59)

حمزة بن قبلان المازني: عاد للمؤلفات اللسانية الأصلية التي أغنت الثقافة العربية وقام بترجمتها ليكتشف جملة من العيوب وقع فيها اللسانيون العرب المحدثون تتعلق مجملها بطريقة الترجمة من كثرة السرقات وضعف الترجمة والادعاء.

بالإضافة إلى هذه الكتابات هناك محاولات نقدية أخرى، تتوع أسلوبها في النقد بتنوع منطلقاتها الإبيستيمولوجية مثل محاولة احمد العلوي الذي اعتمد فيها القران أصلا معربا ومحاولة عز الدين مجدوب الذي ينطلق من ثنائية الفرضيات والمنوالات في عملية النقد وهي ثنائية مستتبطة من فلسفة العلوم والمنطق والعلوم الصحيحة، بالإضافة إلى محاولة مصطفى غلفان التي استمد أصولها من الإبيستيمولوجيات المعاصرة.

4.1 ضوابط القراءة الإبيستيمولوجية:

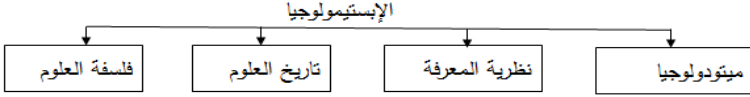
لقد بدأ الوعي الإبيستيمولوجي يظهر على سطح الخطاب النقدي اللساني المعاصر، وبعدها كان معيار الحكم غير واضح وغير مبرر، أصبح أقرب إلى الوضوح في ظل النقد الإبيستيمولوجي. وإذا أردنا أن نبحت عن تعريف دقيق للممارسة الإبيستيمولوجية ، فإن قاموس أكسفورد سيجمع لنا أهم خصائصها في التعريف الآتي: « تركز الإبيستيمولوجيا على طبيعة وأصل وحيز المعرفة. وهكذا تفحص العناصر المحددة للمعرفة ومصادرها وحدودها... إنها دراسة لطبيعة المعرفة و آليات تبريرها ، وعلى وجه التخصيص دراسة ل:

- المكونات المحددة للمعرفة؛
- شروطها ومصادرها الجوهرية؛
- حدودها وآليات تبريرها» (Barber,A,2003, pp3)

فالإبيستيمولوجيا إذن هي المعيار الحقيقي لصحة المعرفة ولانتصار الاتجاه لساني معين أو مهاجمته دون أي مبرر لا ينشئ نقدتا موضوعيا للمبادئ والفرضيات موضوع النقد دون أن يقوم النقد

على أسس ميتودولوجية، فلسفية، معرفية، صورية للخطابات النقدية¹، فمجموع هذه الحقول المعرفية، يشكل إبستيمولوجيا، ولا يمكن أن تقوم أي ممارسة إبستيمولوجية بأحد هذه الحقول دون أخرى (علوي، حافظ، 2009م، ص23)، يمكن أن نلخص هذا التحديد في المخطط التالي:

الشكل 1: يوضح حقول الإبستيمولوجيا



(علوي، حافظ، 2009، ص23).

تتحد هذه الحقول المعرفية لتعمل معا على تقييم الخطاب الميتالغوي من خلال الكشف عن أصول الخطاب ومنطقه واستلزاماته ومناهجه، فوجود هذا المجال المعرفي الكبير يحد من الانزلاق في مناهات الأحكام الذاتي، وبالتالي الانزياح عن حدود اللسانيات إلى التلاسن بسبب الأحكام المتسعة غير المبررة، ويحدد في الآن نفسه الأسس والمبادئ التي تقوم عليه عملية تقييم المعرفة اللسانية. وإذا كانت الخطابات النقدية المشار إليها سابقا قد تأسست على بعض هذه المبادئ فإنها لم تلتزم بها جميعا بشكل يرتقي بها إلى ما في التحليل الإبستيمولوجي من شروط، ماعدا المحاولة الأخيرة لمصطفى غلفان التي أحاطت إلى حد كبير بمحددات الإبستيمولوجيا بينما انزلحت بقية الخطابات النقدية عن حد من حدودها إما بإهمال المصادر الأصلية المؤسسة للخطاب اللساني والتركيز على المصادر الفرعية كما هو الحال مع محاولة حمزة بن قبلان المزيني عندما قام بتقييم المؤلفات العربية المترجمة، وإما بالتركيز على المصدر لأصلي للمعرفة وهو القرآن عند أحمد العلوي باعتباره يشكل الحقيقة المطلقة بينما تمثل اللسانيات معرفة فرعية من صنع البشر وينسحب هذا الحكم على عمل النحاة الأوائل الذي يمثل تماثيل مفككة أخذها المحدثون وصنعوا منها تماثيل شبحية. (علوي، أحمد، 1988، ص14) وبين من تبنى النموذج اللساني الغربي كما هو دون إعادة النظر في الفلسفة التي أسست له فوقع في نفس المطبات التي حذر منها، كمحاولة " عز الدين مجدوب" الذي تبنى فرضية " يلمسليف" اللسانية (مجدوب، 1998، ص108). وبين من اتخذ مع الفرضيات التوليدية التحويلية المرجعيات الفلسفية الفكرية لهذه الفرضيات، دون أن يعيد النظر لا في النماذج اللسانية ولا في الأصول الفكرية المؤسسة لها، كمحاولة الفاسي الفهري التي تتأسس على فرضية: " أن يكون النحو ذا واقع نفسي، للحصول على نحو موحد يصف المعرفة اللغوية الباطنية لمتكلم اللغة (الفهري، 1985، ص33)

¹ ميتودولوجيا: علم المناهج، نظرية المعرفة: تبحث في شروط قيام المعرفة الصحيحة.، تاريخ العلوم: يبحث في ظروف نشأة العلم لاكتشاف أسس التفكير العلمي واتجاهاته، فلسفة العلوم: كل تفكير في العلم فلسفة علم. (ينظر، حافظ إسماعيلي علوي، 2009م، ص23).

2. أسس التقييم الإيستيمولوجي عند الحاج صالح

كثيرا ما يسلط الضوء عند عرض الإنجاز اللساني العربي الحديث وما تعلق به من خطابات نقدية تقييمية على كتابات المشاركة، وعلى كتابات بعض المغاربة كـ " عبد السلام المسدي" من تونس، وكتابات " الفاسي الفهري" من المغرب، أما الحديث عن البحوث اللسانية في الجزائر فيكاد لا يظهر في ساحة البحث اللساني المعاصر، ولهذا جاء البحث ليلسط الضوء على أحد الانجازات اللسانية الجزائرية المعاصرة، والتي تعود للعالم اللساني الجزائري عبد الرحمن الحاج صالح.

تعد كتابات عبد الرحمن الحاج صالح إحدى الخطابات التقييمية المؤسسة إيستيمولوجيا نظرا لقيامها على أهم مبادئ هذا العلم، وإذا كنا قد رأينا كيف تطورت الخطابات النقدية عند بعض اللسانيين العرب المعاصرين، واكتشفنا بعض المزالق التي وقعوا فيها أثناء الممارسة الإيستيمولوجي، فإن الأسئلة المطروح هنا هي:

ما مكانة كتابات عبد الرحمن الحاج صالح من النقد الإيستيمولوجي؟

إن الدراسة الإيستيمولوجية لأي نظرية من النظريات اللسانية تقتضي بالضرورة النظر في مدى موضوعية المعرفة المقدمة، والحكم على المعرفة بالموضوعية لا يتم إلا بالإجابة على نوعين من الأسئلة: يعنى النوع الأول بكيفية إنتاج التركيب الموضوعي للمعرفة، بينما يعنى النوع الثاني بخصائص التركيب الموضوعي للمعرفة. (محمد علي، 1985، ص39)

وإذا كان مصدر الأفكار أو كيفية إنتاج هذه المعرفة مما يعنى به تاريخ العلوم فإن منطق المعرفة " يهتم بمدى ملائمة الأفكار للوقائع". (محمد علي، 1985، ص40) ويكون ذلك بالنظر إلى مدى حضور شرطين أساسيين في النظرية حسب " بوير" هما (محمد علي، 1985، صص46، 53) علاقة النظرية بالوقائع: يقتضي هذا الشرط خضوع النظرية لمعطيات اللغة، فالأصل أن يتبع تطور اللغة تطور النظرية لا العكس.

صمود النظرية أمام النقد: تقاس درجة صدق النظرية أيضا بمدى صمودها أمام النقد فكما

صمدت النظرية أمام النقد العقلي كانت أقرب إلى الصدق من نظرية أخرى.

انطلق عبد الرحمن الحاج صالح من هذين الشرطين الإيستيمولوجيين لتقييم المعرفة اللسانية

المعاصرة، بدءا من قياس مدى صمود تلك النظريات أمام النقد، والحقيقة أن النظريات اللسانية في بحوث ودراسات الحاج صالح لم تثبت أمام الاختبارات التي وضعها أماما، وكشفت الستار عن العديد من العيوب وقع فيها الدرس اللساني العربي الحديث.

1.2 مزالق معرفية في تقييم التراث والمنجز اللساني الحديث

إن تقييم الحاج صالح للمنجز اللساني المعاصر إبستمولوجيا جعلته يسفر عن مجموعة من الهنات وقع فيها اللسانيون العرب من حيث "الأصول والمبادئ المنهجية التي يجب أن يخضع لها كل باحث نزيه" (الحاج صالح، 2012، ص12)، تتعلق معظمها بالمرجعيات والخلفيات الفكرية وبالأسس المنهجية المؤسسة للمذاهب اللسانية البنوية والتوليدية التحويلية، أهم هذه المزالق ما يأتي:

أ. تبني المذاهب الغربية دون نظر في الخلفيات: يعد الاعتقاد بأن جميع ما تصوره الغرب من مفاهيم هو حقائق علمية مسلمة بها من قبل جميع العلماء الغربيين من أهم الأخطاء التي أدت إلى ضعف المستوى البحثي للدراسات اللسانية المعاصرة، يقول الحاج صالح: "والخطأ في ذلك هو أن ينزل الرأي والتصور والمفهوم منزلة الحقيقة العلمية المجمع عليها. وأن ينزل الافتراض الذي لا يعتمد على دليل تجريبي وعقلي منزلة الفكرة العلمية التي أثبتتها الاختبار" (الحاج صالح، 2012، ج1، ص13)

ب. تجاهل البحث النحوي العربي:

من الاعتقادات الراسخة في أذهان الكثير من المحدثين العرب ما ظهر عند العرب من أفكار لا قيمة علمية لها ما لم يثبتها البحث الغربي، وهي مسلمات وليدة الفلسفة القائلة بتدرج وتسلسل المستوى الفكري والحضاري للإنسان على خط مستقيم، من الفكر الديني إلى الفكر الميتافيزيقي إلى الفكر العلمي²، وهي مغالطة لا يثبتها تاريخ الحضارة الإنسانية الذي شهد الكثير من الأفكار الثمينة في غابر الأزمنة، ولم يلتفت إليها الناس إلا في الزمن الحاضر.

ج. القراءة الخاطئة للتراث النحوي العربي:

وقع اللسانيون في العديد من الأخطاء أثناء إعادة قراءة التراث اللغوي، والتي أوقعت البحث اللساني العربي في عدة مزالق منهجية أثناء دراسة اللغة العربية أهمها:

- أ. الاستعانة بالروايات الضعيفة في قراءة التراث العربي.
- ب. إسقاط معاني غربية على نصوص قديمة.
- ت. افتقاد الكثير من البحوث طابع الشمولية في التعامل مع المراجع.
- ث. التعامل مع النصوص النحوية والبلاغية بأفكار مسبقة، يكون مصدرها المستشرقون في

الغالب. (الحاج صالح، 2012، ص ص 15-17)

2.2 مزالق معرفية في تقييم اللغة الموصوفة واللغة الواصفة:

لا شك أن هذه المزالق الإبستمولوجية التي وقع فيها اللسانيون العرب المحدثون في التعامل مع المنجز اللساني الغربي من جهة ، وفي محاوره التراث النحوي العربي من جهة ثانية انعكست سلبا على

² تعود هذه الفكرة إلى بعض فلاسفة العلوم أمثال: أوجست كونت.

بعدين أساسيين من أبعاد النظرية محور النقد هما (حافظ إسماعيلي علوي، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، 2009م، ص 23): البعد المحوري - البعد التحليلي؛ يتعلق البعد الأول بموضوع النظرية، أو اللغة الموصوفة، بينما يتعلق البعد الثاني والثالث بألة الوصف.

أ- عائق اللغة الموصوفة :

يتعلق هذا العائق الإبستمولوجي بالمعطيات الموصوفة وينوع اللغة موضوع الدراسة بحسب النسق التاريخي الذي تنتمي إليه، سواء كانت لغة كلاسيكية أو حديثة أو وسطى، من منطلق أن اللغة تفرض المنهج، والتي يفترض أن تطعم النظرية وأن تضيء للنموذج اللساني بعض الجوانب الجديدة التي تحتاج تفسيراً. (الحاج صالح، 2012، ص 303، 304)

من الأسباب التي أوقعت اللسانيات الحديثة في أزمة معرفية انعكست على اللغة الواصفة ما تعلق بنوعية المعطيات موضوع الوصف، من حيث تصنيف هذه المعطيات، مما أدى إلى إضعاف اللغة العربية موضوع الدراسة والإخلال بنسقتها، والتي تعود في الأساس عند الحاج إلى "الخلط بين اللغات". إذا كان النحاة الأوائل يرون أن اللغة المحفوظة بالنص القرآني تعد "نسفاً ثابتاً من القواعد الصارمة الموزعة بانتظام تكاملي على مختلف فصوصها..." (الأوراغي، 2010، ص 48) وأن الاستعمال الخارج عن هذا النموذج يعد ضرباً من اللحن ومن الضروري تصويبه وإحاقه بالأصل فإن اللسانيون المحدثون يزعمون "أن الخطأ في اللغة اليوم قد يصبح صواباً في المستقبل وصواب الأمس قد يصير خطأ اليوم ... إذا فما الفائدة من التصويب والتخطئة إذا كان الخطأ أمراً محتوماً" (الحاج صالح، 2012م، ج 1، ص 67)

لقد أدرك الحاج صالح عيوب هذا التصور الذي يتحدث عن "خليط لغوي يتكون في نظرهم من عدة لغات متغايرة، عربية كلاسيكية لغة القرءان، وعربية أدبية ترتبط عموماً بالخطاب الأدبي، وعربية صحافية تستخدم حالياً في الإعلام والتعليم. في حين تعد العربية الموحدة أسطورة لا وجود لها في الواقع" (الأوراغي، 2010، ص 49)

ولهذا رأى الحاج صالح ضرورة تصويب هذا التصور الفاسد الغير مبرر علمياً لأن التحول اللغوي إذا أدى فعلاً إلى أن يصير الخطأ صواباً أو العكس. فذلك يقتضي أن تتحول اللغة إلى نظام جديد ومختلف عن النظام السابق (الحاج صالح، 2012، ص 67). وبالتالي يتحول الوصف من الحديث عن الأخطاء إلى الكلام على نظام لغوي جديد، في حين يبقى الحديث عن الصواب والخطأ قائماً لأن أي نظام قد يجري استعماله على الخطأ كما يجري استعماله على الصواب.

فالدراسة العلمية للغة عند الحاج صالح يجب أن " لا تكتفي بالوصف الساذج والتصنيف المشجر لجزء اللغة بالنظر إلى وظائفها فقط إذ لا بد من أن تميّز بين ما هو مرضي عنه... وبين ما هو مرفوض وإلا

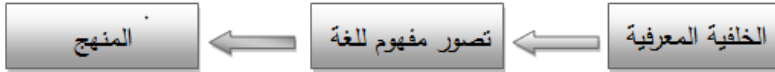
وقع خلط بين النظام والبنية وما هو تحوّل زمني يصاب به فيصيرَه إلى نظام آخر غير الأول" (الحاج صالح، 2012، ص ص67، 68).

أ. عائق اللغة الواصفة:

إن مشاكل اللغة الواصفة في اللسانيات العربية لا تتعلق باستيعاب وفهم النماذج والأطر النظرية، فقد يتمثل الباحث العربي عدة نماذج متنوعة لكنه يفشل في تطوير هذه الآلة بما يتوافق مع طبيعة معطيات اللغة العربية وذلك بسبب التعامل مع الأطر بشكل ظرفي منقطع السند في الثقافة العربية تغيب فيه الخلفيات الإبيستيمولوجية والفلسفية لكثير من النماذج اللسانية (علوي، حافظ، 2009، ص ص304-305).

لا شك إذن أن تلقي آلة واصفة منقطعة السند الإبيستيمولوجي والفلسفي يؤثر سلبا في فهم طبيعة اللغة، وبالتالي الوقوع في عدة أخطاء منهجية في التعامل مع اللغة موضوع الدراسة، ومعنى هذا أن هناك منهجية في التعامل مع المعرفة تقوم على مراعاة التسلسل الآتي:

الشكل 2: يوضح مراحل إنتاج اللغة الواصفة

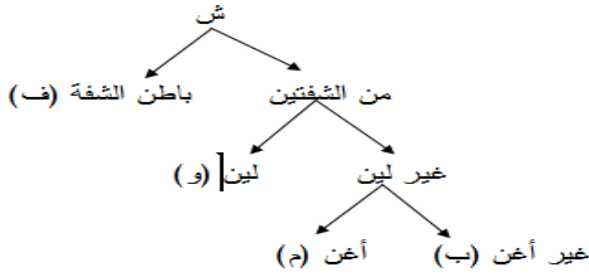


حيث يتحدد المنهج وفقا لطبيعة اللغة التي يتصورها الباحث، وينشأ هذا التصور بدوره من خلفية معرفية سابقة للتصور مؤسسة له. وهذا ما نبه إليه الحاج صالح في أحد كتاباته تحت عنوان: "اختلاف النظرة إلى اللغة وما يترتب على ذلك من اختلاف في مناهج البحث". (الحاج صالح، 2012، ص32) بناء على هذا المنطلق الإبيستيمولوجي سعى عبد الرحمن الحاج صالح إلى تقويم النظرية اللغوية العربية المؤسسة للدرس اللساني العربي عند علماء اللغة الأوائل وذلك بمقارنة المبادئ المنهجية لهذه النظرية بالمبادئ المنهجية التي تأسست عليها اللسانيات الحديثة خاصة البنوية والتوليدية التحويلية. تقوم البنوية على نزعة فلسفية تحدد نظرتها التشخيصية (réifiante) للغة والتي تكفي بتشخيص العناصر والوحدات بناء على مبدأ التقابل بين وحدات اللغة.

فالهدف من هذه النظرة هو الكشف عن عناصر اللغة وتحديد هويتها بالنظر إلى صفاتها المميزة، وما ينجر عن هذا التحديد من اشتغال الشيء على الشيء، حيث يتصور اللغويين اللغة نظاما خاصا تنتظم فيه العناصر بحسب تمايز عناصرها. وهذا النظام التمايزي أو التقابلي (oppositional system) هو الذي يقتضي علاقات الاشتغال، أو الاندراج أو التضمن (inclusion)، بحيث كل فئة تنسم بنفس الميزات الخاصة (features) تحت فئة أوسع تتميز فيها عن غيرها يميات آخر، وهمكذا حتى يحصل اللساني على الجنس العام الذي يشمل جميع هذه المستويات.

إن جوهر هذا المذهب إذا هو مبدأ الهوية، الذي يمثل أحد مبادئ الفلسفة الأرسطوطالية ويقوم على أساس النظرة التشخيصية للغة وعلى مفهوم الاشتغال.
وهو وصف تصنيفي في الأساس كما وصفه تشومسكي الذي قال بأن البنوية ذات نزعة تصنيفية أكثر منها تفسيرية، والتحليل البنوي فيها لا يتجاوز التحليل التصنيفي، ويظهر ذلك خاصة إذا صيغ صياغة رياضية (الحاج صالح، 2012، ص 211)، مثلما هو الحال مع تحليل الحروف الشفوية العربية [ب/م/ و/ ف الذي يأخذ التشجير الآتي:

الشكل 3: يوضح التحليل البنوي للأصوات



(الحاج صالح، 2012، ص 211).

وينسحب هذا النوع من التحليل التصنيفي أيضا على تحليل بنية الجملة، حيث ينطلق الباحث البنوي من المكونات الكبرى ويبحث بالتدرج في كل مكون من مكوناته حتى يصل إلى المكونات الصغرى التي لا تقبل التحليل وهي (الفونيمات)، ويتم هذا التقييم والتصنيف بناء على مقياس الاستبدال (permutation commutation) أي إمكانية إقامة وحدة لغوية مقام أخرى تتحدد فنتها وما إذا كانت تنتمي إلى نفس التصنيف مع الوحدة التي قامت مقامها وإذا بقي الكلام مفهوماً (الحاج صالح، 2012، ص 34، 21، 36).

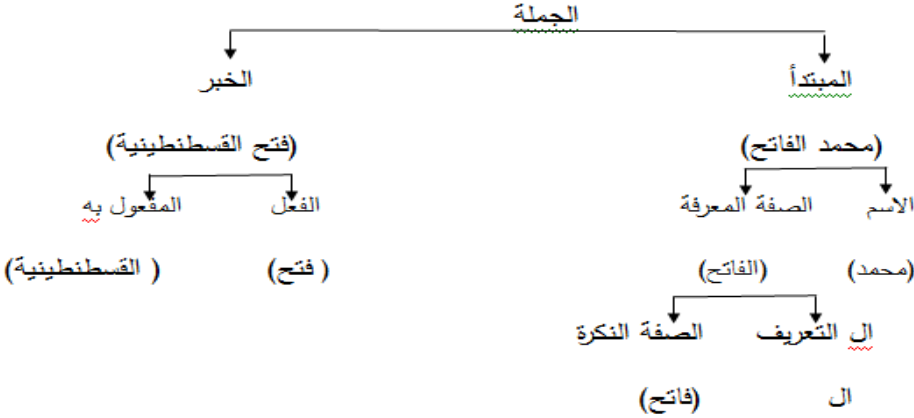
فالجملة (محمد الفاتح فتح القسطنطينية) يمكن أن ترسم بنيتها على الشكل الآتي:

الشكل 4: يوضح التحليل البنوي للجملة

اسم	أد	فعل	اسم	أد	اسم
محمد	ال	فاتح	فاتح	ال	قسطنطينية
محمد	الفاتح	فتح	القسطنطينية		
محمد الفاتح فتح القسطنطينية					

وتأخذ هذه الجملة أيضا التشجير الآتي:

الشكل 5: يوضح تشجير الجملة في البنيوية



(نايف خرما، 1978، ص236).

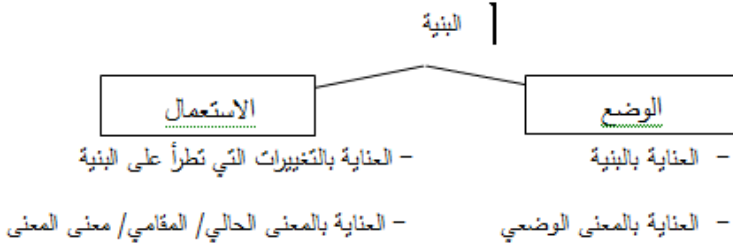
لا شك أن لهذا المنهج في الدراسة عيوب كثيرة تعود إلى النظرة التشخيصية القاصرة للغة والتي "لا تعرف من أنواع العلاقات إلا النوع الاندراجي (الاشتمالي)... [أو] لا تعرف إلا التحديد بالجنس والفصل (أرسطو) وتقتصر بالتالي على التصنيف الساذج الذي لا يعرف إلا إدراج الشيء في الشيء" (الحاج صالح، 2012، ص 210)

لقد قام الحاج صالح بتسليط الضوء على كثير من المزالق المنهجية التي أوقعت فيها النظرة التشخيصية للغة، وذلك بناء على المبادئ المنهجية التي اعتمدها علماء اللغة الأوائل في دراسة اللغة والتي تتبنى تصورا مختلفا لطبيعة اللغة يختلف عن النظرة التشخيصية للغة، وبالتالي يخلق خطوات منهجية بديلة تتجاوز المزالق والعيوب التي وقع فيها الدرس اللساني البنيوي، في ضوء ما تقترحه المدرسة الخليلية، يقول الحاج صالح: " أن النحو العربي قد وضع على أسس إبستمولوجية مغايرة لأسس اللسانيات البنيوية، وخصوصا في المبادئ العقلية التي بنيت عليها تحليلاته. هذا وليس الاختلاف متوقفا على هذا الجانب فقط بل هناك أيضا اختلاف آخر في النظرة إلى البحث باللغة نفسه وتدوين الكلام من أجل التحليل." (الحاج صالح، 2012، ص213)

تتطلق المدرسة الخليلية من نظرة مختلفة للغة، فهي ظاهرة إنسانية لا مادة فيزيائية، لا يمكن أن تتحدد بنيتها بناء على الوظيفة التمييزية لذوات الألفاظ فقط وإنما تتجاوز حدود هذه النظرة التأملية إلى نظرة أخرى أكثر إجرائية يتحد فيها الوضع والاستعمال من أجل استنباط بنية اللغة العربي، وذلك من خلال العناية باللفظ أولا من حيث دلالاته على المعنى باللفظ وحده أي دراسة البنية وهي مستقلة عن واقع

الخطاب، وهو ما يعرف بالوضع، وهو موضوع علم النحو، بينما يعني علم آخر بما هو راجع إلى الاستعمال، من حيث تأدية اللفظ للمعاني المقصودة في مقامات خطابية معينة، وذلك بالنظر إلى التغييرات التي تطرأ على البنية في الاستعمال من حذف وقلب وإبدال، وبالنظر إلى ما يلحق المعنى من تغيير أثناء الاستعمال بسبب استعمال المجاز والاستعارة والكناية وما تؤديه هذه الاستعمالات من دلالة حالية، تقابلها الدلالة الوضعية (الحاج صالح، 2012، ص ص36،37).

الشكل 6: يوضح البنية بين الوضع والاستعمال في اللسانيات الخليلية



أما عن كيفية استنباط البنية فيتجاوزون الصفات المميزة عند البحث عن الجامع بين أفراد الجنس الواحد إلى العناية أيضا بهيئات البنى وأوزانها، لما بين هذه البنى من تناظر أيضا لا مجرد تشاب، ولذلك لم يعتمدوا في تحديد البنية على أوجه الشبه فقط، وإنما تجاوزوا ذلك إلى العناية ببعض أوجه الاختلاف، وكلما كان الاختلاف شديدا كان الجامع أعمق والبحث عنه أقرب إلى المنهج العلمي كما يتصوره علماء الفيزياء والأحياء، وذلك من خلال ما عرف عند النحاة الأوائل بالقياس أو الحمل، الذي يلجأ علماء اللغة الأوائل إليه من أجل حمل بعض الأفراد على بعض (الحاج صالح، 2012، ص 37).

فإذا كانت النظرة التشخيصية للغة لم تسلط الضوء إلا على نوع واحد من العلاقات عند البنيويين وهي علاقات الاشتمال، فإن النظرة الخليلية لا تكفي بضم المتشابهات تحت الجنس الواحد الذي تشترك عناصره في صفة واحدة، بل تتجاوز ذلك إلى العناية بالعلاقات المباشرة التي تجمع بين العناصر التي توجد بين مجموعتين مختلفتين على الأقل. (الحاج صالح، 2012، ص 212)

وذلك بالاعتماد على مقياس بنيوي هو "مقياس التكافؤ"، وهو صلاحية قيام الشيء مقام الشيء أو ما يعرف بالاستبدال في الاصطلاح اللساني المعاصر.

غير أن هدف البنيوية يختلف عن هدف النحاة العرب من هذه العملية، فإذا كانت البنيوية تسعى من خلال عملية الاستبدال إلى تحديد جنس العنصر، وتحديد هويته بإدراجه في فئة بسيطة، فإن هدف النحاة العرب هو الكشف عن مكانة العنصر ودوره في المجموعة وتحديد هويته ببنائه أو بتركيبه في مجموعة مركبة وهي ما يعرف بالباب الواحد (عبد الرحمن الحاج صالح، 2012، ص ص37،38).

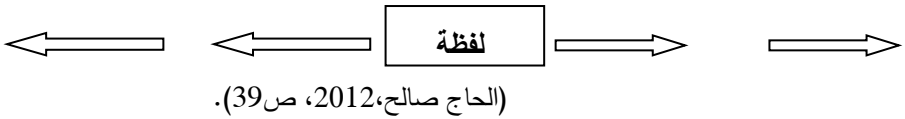
وبناء على المرجعيات المعرفية التي تختلف بين البنيويين والعرب فإن تحليل العلماء العرب للكلام يأخذ منها مميزات في التعامل مع معطيات لغوية واستيعاب خصوصياتها بفضل مراعاته جانب الاستعمال إلى جانب الوضع.

لذلك نبهوا إلى أقل ما ينطق به مما يمثل وحدة إفادية بحسن السكوت عندها، لما تتميز به من صفة "الانفصال والابتداء". ولما وجدوا أن أقل ما ينطق به مما يفصل ويبتدأ في الكلام هو "الاسم المفرد" أو "اللفظ المفرد" كما أطلق عليه الرضي (الإسترايادي، 1993، ص5)، انطلق الباحثون العرب من اللفظة المفردة في التحليل، وهو التحليل الأفضل للكلام، كما يرى الحاج صالح، لأن «الانفصال والابتداء يمكن الباحث من استكشاف الحدود الحقيقية التي تحصل في الكلام وبهذا ينطلق الباحث من اللفظ أولاً ولا يحتاج أن يفترض أي افتراض كما يفعله التوليديون وغيرهم عندما ينطلقون من الجملة قبل تحديدها» (الحاج صالح، 2012، ص219).

فالاسم المفرد الذي يفصل ويبتدئ في الكلام هو أفضل ما ينطلق منه في التحليل لأنه يمثل أقل ما يتكلم به مما يحقق معنى وفائدة تامة، فاللفظة المفردة كما يقول الحاج صالح: «تحتل مكانا يتقاطع فيه اللفظ مع المعنى أو البنية بالإفادة» (الحاج صالح، 2012، ص219).

ولذلك يقوم التحليل عند العرب على "أقل ما يتكلم به مفرداً"، وهو العنصر الذي يمكن أن ينفرد في الكلام بما يحققه من فائدة، مثل: # كتاب # في جواب: ما هذا؟ ثم ينظر فيما يمكن أن يلحق بهذا العنصر المفرد (اللفظة) من عناصر تدخل عليه يمينا وشمالا (الحاج صالح، 2012، ص39) على النحو الآتي:

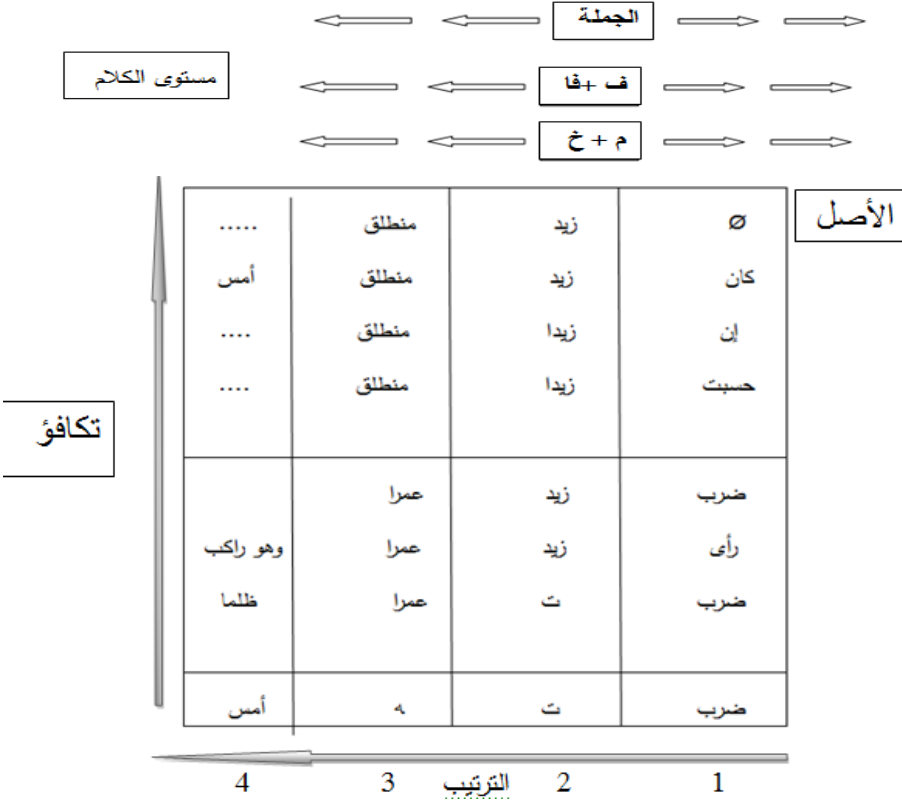
الشكل 7: يوضح توسع اللفظة المفردة في الجملة العربية



تحدد هذه الزيادات التي تلحق يمينا ويسارا باللفظة موضع كل عنصر طارئ وما يؤديه فيه، بحث يكون مجموع هذه المواضع المرتبة حداً للاسم اللفظي، لا كمفردة بل كمجموعة تدخل عليه لوازمها وتخرج. (الحاج صالح، 2012، ص40)

ونفس الشيء بالنسبة لمستوى الكلام (التركيب) فإن عبد الرحمن الحاج صالح يبحث عن أقل ما يمكن أن يتكون منه الكلام لكن فيما هو فوق الاسم، مثل: "زيد منطلق" و"قام عبد الله"، وينظر أيضاً طريقة توسع هذا المثال المجرد وذلك لما يلحقه من عناصر على يمين اللفظة ويسارها، دون أن تخرجه عن كونه كلاماً واحداً (الحاج صالح، 2012، ص40)، وذلك على النحو الآتي:

الشكل 8: يوضح تحليل الجملة في المدرسة الخليلية



(الحاج صالح، 2012م، ص 40).

تتحدد أهمية العناصر التي تزداد على يمين ويسار التركيب، حيث مواضعها حيث يعد العنصر الذي يلحق التركيب من ناحية اليمين عنصرا ذا أهمية أكبر باعتباره العنصر المتحكم في التركيب ككل، ولذلك سمي بالعامل ويأخذ دائما الترتيب الأول بينما يشكل العنصر الرابع الذي يزداد للتركيب من ناحية اليسار عنصرا مخصصا قد يستغني عنه الترتيب إذا كان تاما.

لا شك إذن أن النظرة التشخيصية قد جعلت من الوصف البنوي لا يتجاوز محاولة اكتشاف الوحدات وتصنيفها بينما تجاوزت النظرة الخليلية التي تربط البنية اللغوية بأغراض الاستعمال وأوضاعه حدود الوصف إلى التفسير، وذلك ما وضع التحليل أمام أهم ميزة تتسم بها اللغة وهي قدرة المتكلم على التصرف في البنى اللغوية للتعبير.

خاتمة:

كشفت المقاربة الإيستيمولوجية لكتابات الحاج صالح عن مجموعة من الأسس المعرفية التي قامت عليها قراءاته النقدية للمنجز اللساني وتصوراته التأسيسية للنظرية المقترحة، فبالنظر إلى شرطي النظرية من حيث علاقة النظرية بالواقع، ومن حيث صمود النظرية أمام النقد العقلي، توصل البحث إلى مجموعة من النتائج تعلق بعضها باللغة الموصوفة وتعلق البعض الآخر باللغة الواصفة وشروط انتقائها، أهمها:

- ✓ وقعت اللسانيات العربية في مزلق معرفية في تقييم التراث، تعددت الأسباب واتحدت من أجل تهميش التراث بناء على فكرة تسلسل المستوى الفكري والحضاري للإنسان.
- ✓ تبنى المذاهب الغربية دون دراسة للخلفيات جر اللسانيات العربية إلى إسقاطات منهجية تعسفية.

✓ "الخلط بين اللغات" من الأسباب التي أوقعت اللسانيات الحديثة في أزمة معرفية انعكست على الآلة الواصفة، تخلص الحاج صالح من هذا العائق الإيستيمولوجي عن طريق التمييز بين مستويين للغة: المستوى الإجلالي والمستوى العفوي.

✓ تلقى آلة واصفة منقطعة السند الإيستيمولوجي والفلسفي يؤثر سلبا في فهم طبيعة اللغة، وبالتالي الوقوع في عدة أخطاء منهجية في التعامل مع اللغة موضوع الدراسة.

✓ إن النظرة التشخيصية للغة جعلت من الوصف البنوي يقف عند حدود اكتشاف الوحدات وتصنيفها بينما تجاوزت النظرة الخليلية التي تربط البنية اللغوية بأغراض الاستعمال وأوضاعه حدود الوصف إلى التفسير.

لا شك أن فشل اللسانيات العربية المعاصرة في تقديم نظرية نحوية عربية، إما لتجاهل المشروع النحوي الجاد الذي قدمته اللسانيات الخليلية، وإما بسبب تجاوز المعطيات اللغوية، كل ذلك يستدعي منا الفطنة والحذر في التعامل مع هذا المنجز اللساني، سعيا نحو بناء نظرية لسانية تستمد معطياتها من اللغة العربية وتستعين، في الآن نفسه، بأدوات المدرسة الخليلية التي ثبت إستيمولوجيا صحة منطقاتها التنظيرية.

قائمة المراجع:

أولا - المراجع باللغة العربية:

- علوي، أحمد. (1988). الطبيعة والتمثال مسائل عن الإسلام والمعرفة. الرباط: الشركة المغربية للناشرين المتحدين.
- علوي، حافظ إسماعيلي، والملاخ، محمد. (2009). قضايا إستيمولوجية في اللسانيات. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

- حماسة، عبد اللطيف.(1983). النحو والدلالة. جامعة القاهرة. كلية دار العلوم.
- الاسترابادي، رضي الدين.(1993). شرح الرضي للكافية ابن حاجب، تح: حسن بن محمد بن إبراهيم
- الحفظي. جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية. إدارة الثقافة والنشر الجامعية. هجر للطباعة والنشر.
- الحاج صالح، عبد الرحمن.(2012). بحوث ودراسات في علوم اللسان. الجزائر: موفم للنشر.
- الفاسي الفهري، عبد القادر.(1985). اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية. الدار البيضاء: دار تويقال للنشر.
- مجدوب، عز الدين.(1998). المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة. صفاقس: دار محمد علي الحامي.
- محمد علي، ماهر عبد القادر.(1985). نظرية المعرفة العلمية. بيروت: دار النهضة العربية.
- الأوراغي، محمد علي.(2010). نظرية اللسانيات النسبية دواعي النشأة. بيروت: الدار العربية للعلوم للعلوم ناشرون.
- صاري، محمد.(2003). محاولات تيسير تعليم النحو قديما وحديثا. دراسة تقييمية في ضوء علم تدريس اللغات. رسالة دكتوراه. عنابة. جامعة باجي مختار.
- الجابري، محمد عابد.(2010).مدخل إلى فلسفة العلوم، تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة. الدار البيضاء: مطبعة دار النشر.
- خرما، نايف.(1978).أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة. سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. عدد9.
- ثانيا - المراجع باللغة الأجنبية:
- Barber, A.(2003) .Epistemology of language, the oxford Ed.